بين سلام المقابر وسلام المسيح

أنطونيت نمّور



الدفاع عن الحياة ليس عنفاً. ليس كل صمت سلاماً. والسلام المسيحي، حتماً، ليس ذاك الهـدوء البارد الذي يعقب إسكات الضحية، ولا تلك السكينة الثقيلة التي تخيّم على المقـابر بعـدما تُـدفن الأصوات تحت التراب.

في زمن تختلط فيه المفاهيم، ويُسدل على الحقائق ستار التعتيم، يصبح من الضـروري أن نعـود إلى جوهر التعليم المسيحي، لا إلى الشعارات التي تُرفع أحياناً، عن سوء فهم أو سوء نية، لتبرير استسلام المظلوم.

في اللاهوت المسيحي الكـاثوليكي، لا يُـدان الـدفاع عن النفس أو الأسـرة أو الجماعـة في وجـه عدوان ظالم باعتباره عنفاً بحدّ ذاته. فالكنيسـة تميّـز بوضـوح بين العـدوان الـذي ينتهـك الحيـاة، والدفاع المشروع الذي يسعى إلى حمايتها.

ويرد في الفقرة 2265 من التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية أن الدفاع المشروع قـد يكـون «ليس فقط حقاً، بل واجباً خطيراً» لمن هو مسـؤول عن حيـاة الآخـرين، وأنّ الـدفاع عن الخـير العامّ يقتضي جعل المعتدي الظالم عاجزاً عن الإيذاء.

وعليه، فإنّ الدفاع عن الحياة لا يعني نقض الوصية التي تحرّم القتل، بل قـد يكـون، في ظـروف محدّدة، تأكيداً لقدسية الحياة التي يسعى العدوان إلى سحقها.

ينبني هذا المنطق على النظرة المسيحية إلى الإنسـان. فالحيـاة ليسـت مُقدّسـة لأنهـا قويّـة، أو نافعة، أو منتصرة، أو ملائمة سياسياً؛ إنها مقدّسة لأنّ الإنسان مخلـوق على صـورة اللـه. والحـقّ في الحياة ليس حقّاً عابراً بين حقوق أخرى، بل هو الشرط الأوّل الذي بدونه تصبح سائر الحقوق كلمات فارغة. لـذلك، حين تُقتحم الـبيوت، وتُهـدَّد العـائلات، ويُنـتزع الإنسـان من أرضـه وذاكرتـه وكرامته، لا يعود الصمت حياداً. يصبح الصمت، في لحظات مُعيّنة، شكلاً من أشكال التواطؤ؛ لأنّ الحياد أمام سحق البريء ليس فضيلة، بل هروب من الحقّ والمسؤولية.

لقد قاومت المسيحية، على الدوام، أقدم إغراء في التاريخ: الخلط بين القوّة والحقّ. فالمسيحي لا يُدعى إلى الوقوف مع الأقوى لأنه أقوى، بل مع الحقّ لأنه حقّ. فالقوّة، إذا علت، لا تصير حقّاً، والغالب، إذا انتصر، لا يصبح بريئاً. المسـيحي الحـقّ لا يمكنـه الوقـوف حيث تلمـع السـيوف، بـل حيث يقيم الحق؛ ولا يناصر من اشتدّ ساعده، بل مَن استقام جوهره. وحين يصبح الظلم وقحاً، لا يساوم ولا يتخفّى، بل يأخذ فقط لأنه يستطيع، تصبح الشـهادة المسـيحية أكـثر إلحاحـاً: أن نقـف إلى جـانب العدالـة، ولـو كـانت قليلـة الأنصـار، ضـعيفة الصـوت، ومهجـورة على قارعـة مصـالح «الكبار».

وهنا يقف الصليب لا كرمز للألم وحده، بل كفضيحة كاشفة. ففي الصليب، ظهـر ذلـك الانفصـال القاتل بين العدالة والقوّة: عالمٌ ادّعى أنه يحـاكِم، بينمـا كـان يصـفّق للقـوّة ويصـلب الحـقّ. أمّـا القيامة، فلم تمحُ آثار الجراح، بل أظهرتها. فالمسيح القائم لم يُخـفِ جروحـه، بـل جعلهـا شـهادة حيّة على أنّ القوّة الحقيقية ليست في محـو الحقيقـة، بـل في الثبـات فيهـا من دون التخلّي عن المحبّة، مهما أظلمت الدنيا.

من هنا نفهم لماذا دعا البابا لاوون الرابع عشر، في رسالة الفصح لعام 2026، إلى سلام «ليس مفروضاً بالقوّة، بل بالحوار». فلا يمكن اختزال سلام المسيح في عبارة مائعة أو موقف رمادي. فالسلام المسيحي ليس استسلام الضحية كي يرتاح المعتدي، ولا إسكات المظلوم كي لا ينزعج العالم، ولا ترتيباً خارجياً تُفرض فيه السكينة فوق الظلم كما تُفرش قطعة قماش فوق جرح مفتوح.

وقد شدّد المجمع الفاتيكاني الثاني، في دستور فرح ورجاء، (Gaudium et Spes 78)، على أن السلام ليس مجرّد غياب النزاعات، ولا توازن قوى بين الخصوم، ولا أمراً تفرضه الديكتاتورية، بل هو «عمل العدالة». كما أكّد البابا يوحنا الثالث والعشرون، في رسالته السلام في الأرض، (Pacem in Terris)، أنّ السلام الحقيقي يقوم على الحقيقة، ويُبنى على العدل، ويتغذّى بالمحبّة، ويتحقّق في الحرّية. ثم عاد البابا القدّيس يوحنا بولس الثاني، سنة 2002، فصاغ هذه الحقيقة في عبارة لا تُنسى: «لا سلام من دون عدل». فحيث يُنكر الحقّ، وتُسحق العدالة، ويسود التسلّط، لا مكان للسلام المسيحي. فالسلام الذي يطلب من الضحية أن تصمت ليس سلاماً، بل قمع مُقنّع.

أمّا القدّيس أوغسطينوس، حين تحدّث عن السلام بوصفه «طمأنينة النظام» (مدينة الله، الكتاب التاسع عشر)، فلم يكن يقصد النظام الذي يفرضه القوي على الضعيف، بل ذلك النظام الذي تعود فيه الأمور إلى موضعها الصحيح تحت سلطان الحق والعدل والمحبة. فقد يسكن الصمت المقابر، لكنّ السكون ليس دائماً سلاماً.

ومع ذلك، لا تترك الكنيسة الدفاع المشروع بلا حدود. فحين تصبح المقاومة ضرورية، تبقى مشروطة بالتناسب، وضبط النفس، ورفض تجريد العدو من إنسانيته. فالدفاع عن الخير لا يبرّر التشبّه بالشرّ الذي نقاومه. والمسيحي مدعوّ إلى حماية الحياة من دون تمجيد العنف، وإلى مقاومة الظلم من دون التخلّي عن الرحمة، وإلى طلب السلام من دون التلاعب بشأن شروطه.

لذلك، تقف المسيحية في صفّ الدفاع النبيل عن الحياة، والبيت، والوطن، والحقّ، والضعفاء؛ لا تكريماً للقوّة، بل باعتباره فعل مسؤولية، بل فعل محبّة، غايته استرداد العدالة وحماية الناس من أن يُداسوا.

اليوم، في عالم يمجّد قايين المستقوي، ويغضّ الطرف عن دم هابيل لأنه مزعج، لا يستطيع المسيحي الحقّ أن يصفّق للظلم. فالله لا يقف إلى جانب القويّ لأنه قويّ، بل إلى جانب الحقّ حيث يكون. ولا يبارك رماديةً أخلاقية تساوي بين الجلّاد والضحية باسم الاتّزان، ولا يرضى أن يُقتل المظلوم مرّتين: مرّة حين يُسحق، ومرّة حين يُطلب منه أن يصمت باسم السلام.

فكيف نعرف سلام المسيح إذاً؟

نعرفه حين يمسح عن وجه المظلوم دمعته، لا حين يطلب منه أن يخفيها. نعرفه حين يحمي كرامة الإنسان، لا حين يساوم عليها. نعرفه حين يرفض تحويل الحياد إلى قناع للجبن، والمصالحة إلى ستار للظلم.

سلام المسيح لا يطالب المقهور بأن يصلب نفسه من جديد، فيما يبقى المؤتمنون على حمايته صُمّاً بُكماً. ولا يبارك عالماً يقول للضحية: اصمتي، ففي صمتك السِّلم. سلام المسيح حارس

الحياة حين تُستباح، وليس هدنة مع الظلم. هو لا يشبه صمت المقابر، بل يشبه القيامة: لا يـدفن الحقيقة، بل يوقظ بها العالم.

اليوم، أكثر من أي وقت مضى، ليست المسيحية الحقّة صمتاً يشرعن غلبة الظـالم بالاستسـلام، بل دعوة إلى سلام لا يقوم إلّا حين يُنتشل الحقّ من تحت الركام.

* محاضرة جامعية ومهندسة، كاتبة في قضايا اللاهوت والذاكرة الثقافية

مراجع لاهوتية:

- التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، الفقرات 2263-2265 و2309.

- المجمع الفاتيكاني الثاني، الدستور الرعوي فرح ورجاء، الفقرة 78.

- يوحنا الثالث والعشرون، الرسالة العامة السلام في الأرض، 11 نيسان 1963.

- يوحنا بولس الثاني، رسالة يوم السلام العـالمي 2002: لا سـلام من دون عـدل، ولا عـدل من دون مغفرة.

- أغوسطينوس، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، الفصل 13.

- لاوون الرابع عشر، رسالة الفصح Urbi et Orbi، 5 نيسان 2026.